اسم المادة: النص الأدبي القديم(نثر).
الفئة المستهدفة: سنة الأولى جذع مشترك أدب عربي LMD
المحاضرة 01:
أهداف الدرس: أن يتعرف الطالب على النثر العربي القديم

المحاضرة 01: النثر العربي القديم تاريخيا وجغرافيا.

الأدب العربي الأقدم الذي وصل إلينا هو الأدب الجاهلي، ووصلنا منه شعر ونثر مع اختلاف بينهما في الكم والكيف، فما وصل من شعر كثير قياسا إلى النثر الذي كان في أغلبه خطب وأسجاع غير مكتملة، وبعض المناظرات والمنافرات الأدبية، وأمثال متفرقة؛ ولهذا أنكر بعض المستشرقين ومنهم (المسيو مرسيه) هذا النثر، وادعوا أنه نثر منحول كتب في العصور التي تلت نزول القرآن وليس قبله، وحجتهم أن العرب قبل الإسلام " كانوا يعيشون عيشة أولية.

والحياة الأولية لا توجب النثر الفني لأنه لغة العقل وقد تسمح بالشعر لأنه لغة العاطفة والخيال"، بمعنى أن العرب أمة جاهلة بدائية لا يمكنها أن تنتج نثرا فنيا؛ لأن النثر الفني نتاج التفكير والوعي المتقدم، لذا هو يحتاج إلى بيئات متحضرة مدنية، على عكس الشعر الذي هو نتاج البيئات البدائية لأنه لغة العاطفة والخيال ولهذا برع به العرب.

لقد ردّ زكي مبارك على (مرسيه) بأن العرب في الجاهلية امتلكوا بنية عقلية وفكرية تتيح لهم أن ينتجوا نثرا والدليل على ذلك القرآن نفسه، فهو نزل بلغة عربية وبمستوى فني وأسلوبي يتيح لعرب الجاهلية آنذاك أن يفهموه ويعوا ما فيه من عقائد وقوانين وعبادات وأوامر ونواهي وقصص...الخ، لأن غاية الرسالة أن يفهمها المرسلة إليه، والقرآن كما هو معروف عالي الجودة وغني الأساليب، وهذا يدل على أنهم امتلكوا وعيا فكريا يتيح لهم فهم الرسالة، فضلا عن ذلك القرآن نفسه يصف هؤلاء العرب ولاسيما عرب مكة، بأنهم كانوا خصوما الدّاء وأعداء أشداء في المخاصمة والمحاججة والجدل. ولا يستبعد أنهم أنتجوا نثرا يرقى فنيا إلى مستوى ما أنتجته الحضارات الإنسانية الأخرى، لكنه لم يصل.

تعريف بالنثر:

قسمت العرب نصوص اللغة إلى صنفين: صنف منظوم بوزن وإيقاع وقافية؛ أسمتْهُ شعرا. وصنف منثور لا وزن له ولا قافية؛ أسمته نثرا. وما يهمنا هنا هو النثر لا الشعر.

النثرُ في اللغةً:

جاء في لسان العرب " النثرُ نثركَ الشيء بيدكَ ترمي بِه متفرقًا مثل نثرِ الجوز واللوز والسكر.

النثرُ في الاصطلاح: هو الكلام المتفرق الذي لا يلتزم بالقافية والوزن، والنثر نوعان: فني، وغير فني. أما النثر الفني فتستخدم فيه الفنون البلاغية المعنوية كالتشبيه والاستعارة والتورية وكافة أنواع المجاز، والمحسنات اللفظية كالجناس والمطابقة والسجع والمقابلة. وأما غير الفني فهو الكلام العادي الذي يستخدمه الناس للتواصل فيما بينهم للتفاهم ولقضاء احتياجاتهم الحيوية. وكذا الكلام العلمي الذي يصف الظواهر والأشياء بلغة دقيقة لا خيال فيها، لغة تهدف إلى إيصال حقيقة ما، وليس إبراز الموهبة البلاغية والمهارة القولية، ومنه التقارير العلمية والرسمية والكتابة الوظيفية المقتصرة على طلب أو شكوى أو تظلّم ونحوها. والذي نتحدث عنه وندرسه هنا هو النثر الفني الذي يحوي ملامح أدبية وبلاغية من نوع ما.

النثر أحد قسمي القول، فالكلام الأدبي كله إما أن يصاغ في قالب الشعر المنظوم وإما في قالب القول المنثور. ولابن رشيق المسيلي القيرواني " وكلام العرب نوعان: منظوم ومنثور، ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة، ومتوسطة، ورديئة، فإذا اتفقت الطبقتان في القدر، وتساوتا في القيمة، لم يكن لإحداهما فضل على الأخرى، وإن كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية.

يشرح ابن رشيق أن أصل التسمية في المنظوم وهي من نظم الدر في العقد وغيره، إما للزينة أو حفظا له من التشتت والضياع، أما إذا كان الدر منثورا. لم يؤمن عليه ولم ينتفع به.

من هنا حصلت عملية تشبيه الكلام الأدبي بالدور والمجوهرات وتوهم الناس أن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة.

وذلك بالنظر إلى سهولة حفظ الكلام المنظوم واستظهاره بسبب الوزن، وانعدام الوزن في الكلام المنثور يجعله عرضة للنسيان والضياع، وذلك في وقت كان الناس فيه يتداولون النصوص الأدبية مشافهة دون الكتابة في هذا العصر الجاهلي والعصر الإسلامي الأول، وقد زال هذا التفاضل في عصور التدوين وكتابة النصوص كما في زماننا الحاضر، بحيث اختصَ كُلٌ من النثر والشعر بمجالات في القول تجعله أليق به. ويعتقد ابن رشيق محقاً: إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، وهو يقصد بذلك تلك الحقبة الزمنية قبل الإسلام وبدايات العهد الإسلامي تخصيصاً.

وجاء هذا رداً كافياً على الذين ينفون وجود نثر فني عربي جيد قبل الإسلام، وإنما كان ضياع ذلك النثر الجاهلي أو اختلاطه بسبب طبيعته الفنية الخالية من الوزن. وهو لم يعن بذلك إلا النثر الفني أي الأدبي الذي يتوفر - كما ذكر بروكلمان – "على قوة التأثير بالكلام المتخير الحسن الصياغة والتأليف في أفكار الناس وعزائمهم". أما النثر الاعتيادي الذي يستعمل بين الأفراد في التداول اليومي الغرض الاتصال وقضاء الحاجات والثرثرة مما ليس فيه متانة السبك والتجويد البلاغي ولا قوة التأثير فلا يعتد به، وليس له قيمة اعتبارية في الدراسة الأدبية. إن ما روي من النثر الجاهلي قليل بالنسبة لما روي من الشعر، وذلك لسهولة حفظ الشعر لما فيه من إيقاع موسيقي والاهتمام بنبوغ شاعر في القبيلة يدافع عنها ويفخر بها، وقلة أو انعدام التدوين، والاعتماد على الحفظ والرواية.

3 ـ النثر ومسألة الأسبقية والأفضلية:

إن الحديث عن النثر في الأدب العربي يرد عند كثير من الدارسين في إطار مقارنته بصنوه المتمثل في الشعر. وهي مقارنة تجعل منه، غالبا، جنسا أدبيا أدنى مرتبة من الشعر، أو أضعف تأثيرا، أو أقل حضورا. وهذا ما تفصح عنه أقوال بعض القدامى: «قال السلامي: من فضائل النظم أن صار لنا صناعة برأسها، وتكلم الناس في قوافيها، وتوسعوا في تصاريفها وأعاريضها، وتصرفوا في بحورها... وما هكذا النثر، فإنه قصر عن هذه الذروة الشامخة، والقلة العالية... وقال ابن نباتة: من فضل النظم أن الشواهد لا توجد إلا فيه، والحجج لا تؤخذ إلا منه، أعني أن العلماء والحكماء واللغويين يقولون: "قال الشاعر"؛ و"هذا كثير في الشعر"، و"الشعر قد أتى به"، فعلى هذا الشاعر هو صاحب الحجة، والشعر هو الحجة».

إن الشعر يفضل النثر لكونه أصبح صناعة لها قواعدها المتعارف عليها. كما أنه مصدر للاستشهاد والاحتجاج، فمنه يستقي العلماء والحكماء واللغويون حججهم وشواهدهم.

وفي المقابل نجد مواقف أخرى تنتصر للنثر لكونه الأصل الذي يشرف على فرعه وهو الشعر،على الرغم من أن أصحابها يعترفون بأن لكل منهما محاسن ومساوئ؛ يقول أبو حيان التوحيدي: «وسمعت أبا عابد الكرخي صالح بن علي يقول: النثر أصل الكلام، والنظم فرعه؛ والأصل أشرف من الفرع، والفرع أنقص من الأصل؛ لكن لكل واحد منها زائنات وشائنات». بيد أن مثل هذه المواقف والتصورات استحالت، في مراحل معينة من تاريخ الأدب العربي، إلى قناعات أدبية وفكرية يتعذر تغييرها أو تعديلها لما أصبح لها من مصداقية يشهد بها التاريخ والأدب نفسه؛ علما بأن التاريخ إذا منح السبق لظاهرة ما، فإن ذلك لا يعني أنه يسمو بها فنيا أو يؤثرها جماليا.

يمكن القول، إذن، إن التنازع بين الشعر والنثر مر بمرحلتين هما: «المرحلة الأولى، اكتسبت طابع صراع وجودي بين الشعر والنثر، حيث دارت أهم المناقشات حول الأسبقية في الوجود (الأصل الفرع) أو أهمية المصدر (العقل، القلب)». و«المرحلة الثانية، تميزت ببروز الوعي النقدي للجمع بين الشعر والنثر، في ظل مفهوم جديد هو ما اصطلح عليه لدى العسكري بالكتابة».

لهذا فإن النظر إلى الشعر والنثر باعتبارهما ثنائية يحكمها التضاد أو التنازع مسألة ما تزال تطرح بشكل مغلوط؛ إذ من المعلوم أن «قضية الشعر والنثر طرحت من زوايا متعددة؛ كالنظر للنثر باعتباره منافسا للشعر».

من هنا كان الموقف السليم، في نظرنا، يتمثل في معالجة قضية تنازع الشعر والنثر في إطارها الطبيعي وهو مسألة الأجناس الأدبية من حيث ظهور الأجناس وتطورها وتداخلها وتفاعلها واندثارها؛ خاصة و«أن الأنواع تعيش وتنمو... وفي بعض الأحيان، يتفكك النوع الأدبي»

إن الأجناس والفنون الأدبية تنبثق، في سياق تاريخي محدد، من تراكم التجارب الإنسانية والفنية وتفاعل الأشخاص مع محيطهم لتستجيب لحاجات نفسية واجتماعية وفنية. ولهذا كانـــت «مصداقية النوع تستمد من وظيفته، التي تتجاوز في بعض الأحيان حدود الأدبي إلى ما هو تاريخي أو اجتماعي».

وبناء على هذا، فإن الحديث عن النثر في الأدب العربي يستوجب الالتزام بمجموعة من التحديدات حتى لا يظل حديثا ملتبسا؛ علما بأن هذه التحديدات تتعلق بالأجناس النثرية وما ارتبط بها من مفهومات، وما تمخض عنها من أشكال وخصائص فنية، ومضامين متنوعة، وما طرأ عليها من تغييرات فرضتها سياقات التاريخ، أو ضرورات الفن، أو حاجات الإنسان.

ولهذا فإن الموقف السليم يتمثل في النظر إلى النثر باعتباره إضافة فنية نوعية لم تتبلور لتنافس الشعر، وإنما لتغني الأدب العربي، ولتفتح آفاقا أخرى للتعبير، واتخاذ المواقف، والنظر إلى الأمور من زوايا أخرى.

ولكن رغم ما عرفه النثر من تطور وتحول شملا أنواعه وموضوعاته، فإنه ظل الجنس الأدبي الأقل حضورا وتأثيرا في الإنسان والحياة العربيين. ولقد عالج القدامى هذه الظاهرة، وذهبوا في تفسيرها مذاهب، تحكمت فيه الميولات والأهواء والمصالح أو القناعات والحقائق؛ يقول أبو القاسم الإشبيلي: «وإنما خصصت المنثور لأنه الأصل الذي أمن العلماء ـ لامتزاجه بطبائعهم ـ ذهاب اسمه فأغفلوه؛ وضمن الفصحاء ـ لغلبته على أذهانهم ـ بقاء رسمه فأهملوه، ولم يحكموا قوانينه، ولا حصروا أفانينه».

لهذا النص/ الشهادة قيمتان: قيمة تاريخية ـ فكرية، وأخرى علمية. فالأولى تعكس وعي القدامى المبكر بإشكال النثر في الأدب العربي. أما القيمة العلمية أو النقدية فتتجلى في سعيها إلى تفسير ما لحقه من إهمال لأسباب متعددة.

وعموما، يمكن أن نستنتج من النص السابق ما يلي:
أ ــ إن أبا القاسم الإشبيلي يجعل النثر هو الأصل، لهذا كان الأحق بالاهتمام والدراسة.
ب ـ إن العلماء أغفلوا النثر لأنهم اطمأنوا إلى عدم اندثاره لكونه يشكل جزءا من طبائعهم إذ هو لسانهم وترجمان أحوالهم.
ج ــ أما الفصحاء فأهملوه لكونهم ضمنوا بقاءه ودوامه لارتباطه وغلبته على ملكاتهم الذهنية.
د ـ من هنا كانت أسباب الإغفال والإهمال تنحصر في اقتناع العلماء والفصحاء، واطمئنانهم إلى قدرة النثر على البقاء والاستمرار.
هـ ـ بيد أن موقف أولئك العلماء والفصحاء قد ترتبت عليه انعكاسات ونتائج سلبية إذ ظل النثر دون تقعيد، فلم تضبط قوانينه، كما لم تحصر فنونه. يقول أبو القاسم:« ولم يحكموا قوانينه، ولا حصروا أفانينه».
ولا يخفى ما يتضمنه كلام أبي القاسم من إشارات في غاية الأهمية لكونها تندرج ضمن الوظائف التصنيفية والتجنيسية التي يجب أن يضطلع بها مبدعو الأدب ومؤرخوه ودارسوه. ولعل هذا ما حاول أن يقوم به أبو القاسم من خلال تأليفه لكتاب (إحكام صنعة الكلام) إذ يشي عنوان الكتاب بذلك، ويصدقه مضمونه إلى حد كبير.